الفصل الثانى

❁ القنوات الخاصة .

- قنوات أحزاب وقوى سياسية .
- قنوات استثمار إعلامى .
- قنوات رجال الأعمال .

القنوات الخاصة

نشأت القنوات الخاصة منذ عرفت البلاد العربية البث التلفزيونى فى النصف الثانى من القرن العشرين. وقد نشأت هذه القنوات الخاصة فى لبنان بحكم الحرية الإعلامية التى تتمتع بها لبنان، بينما لم تعرف البلاد العربية الأخرى مثل هذه القنوات نظرًا لعدم السماح بأى نشاط إعلامى بعيدا عن الإعلام الرسمى.

وظل الأمر كذلك إلى أن بدأ عصر القنوات الفضائية، وأدركت أنظمة الحكم العربية أن عدم السماح بإنشاء قنوات تلفزيونية خاصة لم يعد يحقق لهذه الأنظمة القدرة على منع البث التليفزيونى من اختراق حدودها. فلم يعد إحتكار أنظمة الحكم للبث التليفزيونى أمرا يمكن أن يحقق لهذه الأنظمة هدفها فى إرغام مواطنيها على متابعة مصدر واحد للإعلام وهو الإعلام الرسمى.

ولهذا فكرت بعض أنظمة الحكم العربية فى السماح لرجال الأعمال بإطلاق قنوات فضائية خاصة، مطمئنة إلى أن استقبال البث الفضائى يتطلب تكاليف عالية لا تقدر عليها الجماهير العريضة من محدودى الدخل، وبالتالى سيظل مشاهدو هذه القنوات محصورًا فى عدد محدود من النُّخب الثقافية. كما أن الحكومات قادرة على الضغط عند الحاجة على أصحاب هذه القنوات إذا تجاوزوا الخطوط الحمراء التى تضعها الحكومات .

ونستطيع أن نقسّم القنوات الخاصة إلى مجموعات لكل مجموعة ملامح خاصة، ولكل منها أهداف متشابهة.

وبعض هذه القنوات قنوات متخصصة فى الأخبار والبرامج السياسية[1]. والأخرى قنوات عامة. وسأقتصر هنا على التعرض للقنوات العامة.

(١) سيتم تناول القنوات المتخصصة هذه فى الفصل المعنى بهذه النوعية من القنوات.

أولًا : قنوات أحزاب وقوى سياسية : (قنوات تطلق من بلاد عربية) :

هذه النوعية من القنوات يسمح بإنشائها فى لبنان والعراق وفلسطين والسودان دون سائر البلاد العربية الأخرى. ورغم أن النظام السياسى فى مصر قد اعتمد خلال فترة حكم الرئيس السادات نظام التعددية الحزبية، وسمح للأحزاب بإصدار الصحف، فإن نظام الحكم فى مصر يرفض بشكل حاسم السماح «للأحزاب» بإطلاق قنوات إذاعية أو تلفزيونية أرضية أو فضائية.

نماذج من هذه القنوات :

١ - قناة المنار :

هذه القناة يملكها حزب الله اللبنانى ويطلقها من العاصمة اللبنانية بيروت. وقد حظيت هذه القناة باهتمام قطاعات كبيرة من الجماهير العربية عندما بدأت إسرائيل هجومها على لبنان عام ٢٠٠٧ بهدف القضاء على قوات المعارضة المسلحة التابعة لحزب الله والتى استطاعت خلال عام ٢٠٠٥ أن تجبر إسرائيل على الإنسحاب من الأراضى التى ظلت تحتلها بجنوب لبنان لسنوات طويلة. وكان لنشاط المقاومة المسلحة التابعة لحزب الله الدور الأكبر فى إجبار إسرائيل على اتخاذ قرار الإنسحاب.

ومع مواصلة حزب الله تعظيم قواته المسلحة بضم المزيد من العناصر والحصول على أسلحة متطورة مثل صواريخ أرض أرض، رأت إسرائيل أن توجه ضربة إجهاض لقوى المقاومة. وكان أن شنت إسرائيل هجومًا على لبنان ودارت رحى حرب شرسة مع قوات المقاومة التابعة لحزب الله استمرت لأكثر من شهر، تكبدت فيها إسرائيل خسائر اضطرتها للقبول آخر الأمر بوقف إطلاق النار والإنسحاب من الأراضى التى أعادت احتلالها بالجنوب.

وكان لهذا الانتصار الذى حققته قوى المقاومة المسلحة لحزب الله اللبنانى أثرها فى خلق حالة من الإعجاب والشعور بنشوة انتصار عربى على إسرائيل، تجاوز حدود لبنان إلى جميع البلاد العربية.

وكانت قناة «المنار» خلال هذه الفترة هى الصوت المعبر عن هذا الانتصار. ولهذا تابعتها الجماهير العربية بثقة واهتمام حتى بعد أن انتهت الحرب.

وحرصت القناة على أن تنسب هذا الانتصار لكل فصائل المقاومة اللبنانية، بل وأن تشيد بالمساندة العربية والإسلامية التى مكنتها من تحقيق هذا الإنتصار العزيز على العدو الإسرائيلى. وهذه النوعية من الخطاب الإعلامى منحت قناة «المنار» فرصة كبيرة لكسب ثقة قطاعات عريضة من الجماهير العربية.

وبعد فترة بدأت وسائل الإعلام العربية الحكومية فى مصر والسعودية وبعض البلاد العربية التى تلتزم بنفس الخط السياسى الذى ينظر بريبة إلى حزب الله، بالإضافة لقوى سياسية لبنانية معادية لهذا الحزب، بدأت وسائل الإعلام التابعة لهذه القوى فى شن حملة شرسة ضد حزب الله ترتكز على اتهامه بإستخدام سلاح المقاومة لتوريط لبنان فى حرب ألحقت دمارًا واسعًا بالبنية الأساسية للبنان وكبدته خسائر فادحة. كما استخدمت هذه الحملة الصفة المذهبية لحزب الله لاتهامة بأنه يحاول نشر «المذهب الشيعى» فى البلاد العربية التى يعتنق أغلب مواطنيها «المذهب السنى»، وأن حزب الله يتحرك حسب توجيهات إيرانية.

ونتيجة لهذه الحملة الإعلامية المركّزة لتلك الدول والقوى العربية واللبنانية المعارضة لحزب الله بدأت قطاعات من الجماهير العربية التى تابعت قناة «المنار» بثقة واهتمام، بدأت فى التشكك فى أهداف هذه القناة. وفقدت القناة ـ على الصعيد العربى ـ نسبة لا بأس بها من المشاهدين. وإن بقيت القناة جاذبة لنسبة كبيرة من الجماهير اللبنانية خاصة الجماهير الشيعية أو المتعاطفة مع حزب الله وأيضًا من الجماهير التى ترفض التصنيف المذهبى فى العديد من البلاد العربية.

٢ - قناة المستقبل :

هذه القناة هى الوجه المناقض لقناة «المنار» سواء فى الاتجاهات المذهبية أو السياسية. فقناة «المستقبل» التى أطلقها الرئيس اللبنانى الراحل رفيق الحريرى ترتبط برباط وثيق بالتوجهات السعودية «سياسيًّا» وأيضًا دينيًا بالمذهب السنى. وبعد رحيل الرئيس الحريرى وتولى نجله سعد الحريرى رئاسة حزبة والتحالف مع ما سمى تيار الرابع عشر من أزار قادت قناة «المستقبل» هجوما على حزب الله وحلفائه، وبالتالى نشبت حرب إعلامية بين كل من قناة «المنار» التى يملكها حزب الله وقناة «المستقبل» المملوكة لحزب الحريرى[١]. وبعيدًا عن الشئون السياسية تقدم القناة العديد من البرامج الثقافية والترفيهية.

٣ - قناة LBC :

هذه القناة نشأت مسيحية الهوى ومرتبطة إلى حد بعيد بالقوى السياسية المسيحية. وكانت تجنح فى برامج كثيرة إلى نغمة عنصرية يتبناها بعض غلاة المتعصبين المسيحيين والتى تنكر انتماء لبنان العربى وتتغنى بعنصرية فينيقية لبنانية.

وكانت القناة تتبنى بشكل صريح اتجاهات القوى السياسية المسيحية الأكثر تشددًا فى لبنان.

أما فى البرامج الترفيهية فقد توسعت فى نوعية البرامج الأكثر إثارة للشباب، وتحظى القناة بثقة واهتمام قطاعات كبيرة من مسيحيين لبنانيين فى الوطن والمهجر. وبعد أن اشترى أحد الأثرياء السعوديين النسبة الأكبر من أسهم هذه القناة بدأت فى تخفيف النغمة العنصرية نسبيًّا، وإن ظل توجهها السياسى الموالى للقوى المسيحية المتشددة قائمًا، خاصة وأن السعودية ترغب فى الإبقاء على علاقات جيدة بهذه القوى سياسيًّا.

(١) خفت حدة هذه الحرب فى شهر ديسمبر «تشرين الثانى» عام ٢٠٠٩ بعد تشكيل الحكومة اللبنانية التى يرأسها سعد الحريرى ويشارك فيها حزب الله.

٤ - قنوات عراقية :

تتزاحم فى الفضاء العراقى قنوات يصعب حصرها، فما أكثر الأحزاب والقوى السياسية فى العراق. ويطلق كل حزب أو فصيل سياسى قناة فضائية أو أكثر من قناة، كما تطلق الأحزاب الكردية قنوات ناطقة باللغة الكردية وتُخصَّص مساحات زمنية لا بأس بها ببعض هذه القنوات لبرامج ونشرات أخبار باللغة العربية. وأكثر القنوات العراقية تركز على قضايا سياسية ولها صبغة دينية، وأغلبها قوى تتبع المذاهب الشيعية، وهذه نتيجة طبيعية بعد انهيار نظام صدام حسين وهيمنة قوى الاحتلال الأمريكى، فقد حصل الشيعة فى هذه الظروف على النصيب الأكبر من مؤسسات الحكم فى العراق. ويمكن أن نرصد سمات مشتركة للقنوات العراقية على النحو التالى :

أ – ارتفاع النبرة المذهبية سواء الشيعية أو السنية، ويصل الخطاب المذهبى فى بعض الحالات إلى إذكاء الصراع بين المواطنين العراقيين على أساس الانتماء إلى هذا المذهب أو ذاك.

ب – بعض هذه الفضائيات تقدم دولاً إسلامية مجاوره باعتبارها «الوطن الأم» لاتباع هذا المذهب أو ذاك. فالقنوات الشيعية تقدم «إيران» بهذه الصفة، والقنوات السنية تقابلها بتقديم «السعودية» باعتبارها حامية أهل السنة.

جـ – أغلب هذه القنوات تقدم خطابًا إعلاميًّا يشجع على الاتجاهات السياسية المنادية بحكم لا مركزى يتمتع بدرجة كبيرة من الاستقلال، وتُقَسّم فيه المناطق والمحافظات على أساس مذهبى «سنى شيعى» وعنصرى «عربى / تركى / كردى».

٥ - قنوات فلسطينية :

بعد أن استولت حركة حماس على قطاع غزة سمح الانفصال الجغرافى بين غزة والضفة الغربية لحماس بأن تحكم قبضتها على قطاع غزة، وأن تحكم «فتح» قبضتها على الضفة الغربية معتبرة نفسها السلطة الفلسطينية الشرعية.

وفى ظل هذه الظروف انفجرت الصراعات الحادة بين الفريقين ونشبت حرب إعلامية بينهما. واستنفر كل فريق قناته الفضائية التلفزيونية[1] لتكون سلاحة فى هذا الصراع.

وكل فقرة فى هاتين القناتين مكرسة لهذا الصراع بدءًا من نشرات الأخبار التى تتخيّر أخبارًا تكشف أخطاء الطرف الآخر أو تعزز وجهة نظر الطرف الذى يسيطر على القناة، مرورًا بالبرامج التى تتغنى بإنجازات كل طرف وانتهاء بتبادل الاتهامات بالخيانة.

وحتى فى الفترات التى هدأ فيها الصراع بين الفريقين نتيجة لوساطات عربية طالبت بوقف الحملات الإعلامية المتبادلة، فإن هذا التوقف لم يدم لأكثر من أسابيع وعادت قنوات الفريقين لتكريس موادها للحرب الإعلامية.

قنوات قوى المعارضة السياسية: (تبث من عواصم أجنبية):

لجأت بعض القوى السياسية المعارضة لأنظمة الحكم العربية إلى إطلاق فضائيات تعبّر عن توجهاتها من بلاد أوربية خاصة من العاصة البريطانية لندن. وبعض هذه الفضائيات تقدم نفسها بوضوح باعتبارها قنوات تمثل قوى معارضة لأنظمة الحكم فى بلادها، بينما تقدم فضائيات أخرى نفسها على أنها قنوات خاصة مستقلة.

وأبرز أمثلة لهذه القنوات القنواتُ التى تطلقها بعض قوى المعارضة السعودية والمصرية والتونسية والجزائرية والسورية من العاصمة البريطانية لندن.

وهذه القنوات أنشأتها شخصيات معارضة لأنظمة الحكم فى أوطانها، ولا تمكّنها أنظمة الحكم فى هذه الدول من امتلاك أداة تعبير عن رأيها فى بلادها. ووجدت هذه القوى فرصتها فى البث الفضائى الذى يمكّنها من وصول صوتها إلى المواطنين فى بلادها والتعبير عن آرائها بحرية، وعن توجيه النقد الحاد لأنظمة الحكم فى أوطانها، وهى فى مأمن من المطاردة والمصادرة.

(١) السلطة الفلسطينية فى رام الله تسيطر على قناة فلسطين ، وتسيطر حماس فى غزة على قناة القدس.

نماذج من هذه القنوات :

• قناة المستقلة :

وتحاول أن تستخدم نبرة هادئة نسبيًا عند تقديم موضوعات تنتقد أنظمة الحكم العربية المختلفة. ورغم هذا الحرص فإنها غالبًا ما تستضيف شخصيات معارضة لها مواقف حادة فى نقدها لأنظمة الحكم خاصة من الشخصيات التى تقيم فى المهجر ولا تُخفى معارضتها القوية لأنظمة الحكم ببلادها. وتحرص إلى جانب ذلك على أن تقدم بعض البرامج الثقافية، سواء فى الموضوعات الدينية أو الأدبية.

• قناة الحوار :

ونبرة المعارضة فى هذه القناة مرتفعة نسبيًا. ومع ذلك فإنها تحرص على أن يبتعد الحوار عن الهبوط إلى مستوى استخدام العبارات الطائشة أو الجارحة، خاصة إذا تعلق الأمر بشخص الحاكم فى البلاد التى تنتقد سياستها. وهذا الحرص يجعلها تبدو أكثر موضوعية عند طرح موضوعاتها النقدية.

• قناة الإصلاح «السعودية»[1] :

وتعتمد هذه القناة على بث أخبار وتعليقات تكشف عن الفساد فى المملكة العربية السعودية. وتركز بشكل خاص على ما تراه فسادًا يمارسة أعضاء الأسرة المالكة. وتتحدث بإسهاب عن حصول أعضاء هذه الأسرة على النسبة الأكبر من عائدات الثروات النفطية والمعدنية وإنفاق هذه الأموال فى مظاهر ترف سفيهة ومستفزة. وتحاول القناة أن توثق هذه الأخبار سواء بذكر مصادر تحددها أو باتصالات هاتفية من مواطنين يذكرون عند اتصالهم أنهم يجرون هذه الاتصالات من داخل المملكة العربية السعودية، ليتحدثوا عن قضايا فساد كانوا شهودًا عليها أو علموا بتفاصيلها.

(١) تتعرض هذه القناة لضغوط قوية من النظام السعودى تحاول أن تقنع الحكومة البريطانية بإغلاق مكاتب هذه القناة ووقف بثها. وقد نجحت هذه الضغوط فى منع هذه القناة من البث أكثر من مرة لكن المسئولين عن هذه القناة استطاعوا فى كل مرة أن يعاودوا البث.

والسمات المشتركة لهذه القنوات هى :

أ - تستضيف هذه القنوات فى برامجها السياسية الشخصيات الأكثر عنفًا فى معارضتها لأنظمة الحكم ببلادها، وتسمح لهم بالتعبير عن هذه المعارضة بحرية تامة.

ب - تقدم بعض هذه القنوات أغلب موادها فى صورة برامج حوارية تستضيف أكثر من شخصية مع تلقى اتصالات هاتفية، وتكاد تخلو تمامًا من البرامج الثقافية والترفيهية التى تستخدم وسائل الإبهار الجذابة. بل إن بعض الفقرات تمتد لساعة أو أكثر، يحتل فيها الشاشة مذيع يقرأ ما يمكن أن نصفة بأنه منشور سياسى. ونتيجة لهذا فإن مثل هذه القنوات لم تستطع أن تجذب الجماهير العريضة بل يتابعها جمهور محدود من المعنيين بدرجة كبيرة بالشئون السياسية.

جـ - هذه القنوات لا تلتزم فى أغلب ما تقدمة من مواد بالمعايير العلمية للإعلام، ومن أهمها الالتزام بالتدفق الحر للأخبار، وعدم اتخاذ موقف مسبق تحاول القناة فرضه على المشاهد، سواء بحجب الأخبار أو تشويهها، أو انتقاء نوعية خاصة من الأخبار لخدمة أهدافها، وأيضا الالتزام بالتوازن عند تقديم الموضوعات الخلافية بالسماح للاراء المتعارضة بشرح وجهة نظرها فى الأمور محل الخلاف.

ونستطيع أن نعتبر هذه القنوات مجرد «قنوات دعاية سياسية» وليست قنوات إعلامية.

ثانيًا: قنوات تجارة وخدمات إعلامية :

(خدمات سياسية)

وتتركز هذه القنوات فى لبنان ولندن وهذه القنوات ـ كما ذكرت ـ هى الصورة الحديثة للصحافة اللبنانية المطبوعة التى عرفناها فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين. وأغلب هذه القنوات يعتمد على «اتفاقيات» مع أنظمة حكم عربية وأجنبية تحصل القناة بموجبها على «دعم مالى» كبير مقابل

الدفاع عن سياسات هذه الأنظمة أو على الأقل عدم التعرض لها بالنقد. أى أنها عملية «تجارة إعلامية سياسية». وكثيراً ما تغير هذه القنوات مواقفها من أنظمة الحكم فتؤيد من عارضته أو تعارض من أيدته من قبل، نتيجة لتلقيها دعما أكبر من الجهة التى تعارضها أو توقّف الدعم من الجهة التى كانت تقدم لها الدعم المادى.

ومن النماذج التى تمثل الاستثمار الإعلامى فى المجال السياسى عدد من القنوات اللبنانية وأمثالها، وتحاول هذه القنوات استغلال الخلافات العربية العربية فتعرض خدماتها على الأنظمة المتصارعة أو على الدول الأجنبية التى تريد أن تبرر سياساتها تجاه الدول العربية، خاصة إذا كانت هذه السياسات مرفوضة جماهيريًا. وتقدم هذه القنوات البرامج والأخبار التى تدعم وجهة نظر من تم الاتفاق معه، وتوجه إلى خصومة أو معارضيه أعنف الاتهامات.

وتؤدى هذه القنوات نفس الدور الذى كانت تؤديه بعض الصحف اللبنانية فى مرحلة تصاعد الحروب الإعلامية العربية العربية[1].

ويلاحظ أن هذه النوعية من القنوات المعنية بالاستثمار فى «مجال الحروب السياسية» لم تعد تلقى رواجًا، وتقلصت أعدادها بشكل كبير، حيث بدأت أنظم الحكم المختلفة تفضّل إطلاق فضائيات مملوكة لشخصيات من مواطنيها ممن تربطهم صلات وثيقة بالحكام ضمانًا لإستمرار ولائهم، بعد أن أدركت من تجارب سابقة أن الإعلام «المستأجَر» كثيرًا ما يغيّر ولاءاته تحت إغراء تقديم الخصوم لدعم أكبر.

(خدمات ترفيهية)

تم إطلاق عدد كبير من القنوات المعنية «بالتجارة الإعلامية الترفيهية»، وهذه القنوات الموجودة بكثرة فى لبنان ومصر، وتعتمد على تقديم مواد ترفيهية مثيرة وتجنح لاختيار المواد «الساخنة» والتى تجذب المراهقين والمراهقات، وتركز على تحقيق الأرباح من الإعلانات التى تستهدف هذه

(١) حرصت على عدم ذكر أسماء هذه القنوات، لأن الأدلة المادية لتلقيها أموالًا من حكومات أو جهات عربية أو أجنبية من الصعب الحصول عليها، رغم أن أمر هذا الدعم المادى معلوم لكل من له صلة بالنشاط الإعلامى.

النوعية من المشاهدين، وعلى ما تحصل عليه من نسبة من أجور الاتصالات الهاتفية التى يدفعها جمهور المشاهدين، سواء عند الاتصال للمشاركة فى البرنامج أو المشاركة فى المسابقات، وهذه العائدات تمثل نسبة كبيرة من الدخل المادى لتلك القنوات.

وحاولت بعض هذه القنوات تقديم نماذج لبرامج غربية مثيرة، على غرار البرامج التى تقدم الحياة اليومية لشابات وشباب، من خلال بث حى وهم يمارسون حياتهم اليومية لعدة أيام، ومن خلال حوارات عفوية بين هؤلاء الشباب أو حوارات مع مذيعين. ويتعرف المشاهد من خلالها على كثير من جوانب الحياة الخاصة لهؤلاء الشباب والشابات بقصد ترشيح البعض من الفتيات أو الشباب لاختيار زوج أو زوجة من هذه المجموعات. وبشكل عام تلجأ هذه الفضائيات إلى كل ما تراه جاذبًا للمشاهد مهما بلغت درجة إثارته. واحتمال تضاده مع التقاليد والقيم الاجتماعية السائدة فى المجتمعات العربية التى تجنح عادة إلى المحافظة.

وتركز بعض هذه القنوات على تقديم «الكليبات الغنائية» التى تُصَوَّر بطريقة تجنح إلى الإثارة الساخنة التى تجذب قطاعات كبيرة من المراهقات والمراهقين[1]، وتقدم نصوص رسائل بعضها يتجاوز حدود الآداب العامة يتبادلها المشاهدون على شاشات هذه القنوات.

كما تقدم بعض هذه القنوات مسابقات تافهة، تطلب من المشاهدين المشاركة فيها عبر الهاتف، وتغريهم بجوائز كبيرة، مما يدفع أعدادًا كبيرة من المشاهدين إلى إجراء الاتصالات الهاتفية، وتحصل القناة على عائدات مادية ضخمة ممثلة فى النسبة التى تحصل عليها من أجور هذه الاتصالات الهاتفية.

كما تتخصص بعض هذه القنوات فى عرض رسائل المشاهدين و«الدردشة» معهم بطريقة تغلب عليها العبارات الأكثر إثارة للغرائز.

(١) المراهقة التى أعنيها ليست مرتبطة فقط بالمرحلة السنية للإنسان، ولكننى أعنى بها المراهقة العاطفية والعقلية.

ثالثًا : قنوات رجال الأعمال[1] :

أطلق العديد من رجال الأعمال فضائيات متخصصة، وهى نوعية من القنوات تختلف أهدافها عن «القنوات العامة» التى تحدثنا عنها.

ويتجاوز عدد القنوات التى يطلقها رجال الأعمال سواء «القنوات العامة» أو «القنوات المتخصصة»[2] مئات القنوات، وأغلب مالكى هذه القنوات هم من المصريين والسعوديين والعراقيين واللبنانيين والسوريين والخليجيين.

وقنوات رجال الأعمال المصريين لها خصوصية اكتسبتها من الظروف السياسية فى مصر. ففى مناخ سمح فيه نظام الحكم بهامش من الحرية الإعلامية أطلق عدد من رجال الأعمال المصريين قنوات فضائية متعددة لتكون «قوة إعلامية» يمكن استخدامها لخدمة نشاطهم فى مجالات الاستثمار. وبطبيعة الحال فإن هذه الفضائيات يمكن أن تكون «ورقة إعلامية» لها وزنها فى علاقات رجال الأعمال بالحكومة، سواء للتخفيف عن ضغوط يتعرضون لها أو للحصول على مزيد من الامتيازات. وأيضًا لتجميل صورتهم فى مجتمع ارتبطت فيه الصورة الذهنية لرجال الأعمال بألوان شتى من الفساد ونهب المال العام.

وتحتاج هذه القنوات إلى حديث أكثر تفصيلاً، لأنها استطاعت أن تحقق قدرًا كبيرًا من النجاح فى جذب نسبة هائلة من المشاهدين من مختلف الاتجاهات الفكرية والسياسية، ومن مختلف الفئات الاجتماعية والمستويات الثقافية. وأعتقد أن هذا النجاح يعود فى المحل الأول لارتفاع سقف «الحرية» الذى سمح لهذه القنوات باقتحام موضوعات ظلت لسنوات طويلة من المحظورات، وهى موضوعات تمثل حرجًا بالغًا لنظام الحكم لمجرد إثارتها فما بالنا إذا تمت إثارتها بجرأة وطرحت خلال عرضها الآراء التى تكشف عن عجز أو فساد تشارك فيه الحكومة أو بعض كبار المسئولين.

(١) سبق وتناولت بعض القنوات العامة المملوكة لأشخاص أو شركات خاصة عند الحديث عن القنوات الحكومية مثل قنوات «الساعة» و «MBC» و«أوربت». وذلك لأنها تنتمى عمليًا إلى منظومة الإعلام للدول التى أشرت إليها رغم استقلالها الشكلى كقنوات خاصة.

(٢) هذه القنوات المتخصصة سوف أتعرض لها بالتفصيل فى الفصل الثالث.

حرصت أن أؤكد على أن هذا التوجه وهذه «الحرية» هما سر نجاح هذه القنوات، لأننا سوف نرى فى الصفحات التالية كيف تعاملت أنظمة الحكم مع هذه الفضائيات لوقف هذه الموجة من «الحرية»، سواء فى «اختيار» الموضوعات أو فى طريقة عرضها ومناقشتها.

قناة المحور:

قناة «المحور» من أوائل القنوات الخاصة ، وقد شاءت الظروف أن أكون شاهداً على فكرة إنشاء هذه القناة فى وقت مبكر لم تكن فيه هذه النوعية من القنوات قد أُطلقت بهذه الأعداد الكبيرة. وسأقدم شهادتى هذه لأنها تكشف عن «هدف» رجال الأعمال من إطلاق فضائياتهم كما ورد فى أحاديثهم.

فقد دعا رجل الأعمال الدكتور حسن راتب إلى اجتماع فى مكتبه حضره عدد من رجال الأعمال من جمعية مستثمرى السادس من أكتوبر، ودعا إلى الاجتماع بعض الفنانين منهم الأستاذ عزت العلايلى، وبعض الصحفيين منهم الأستاذ مصطفى بكرى، وبعض الإذاعيين وكنت أحدهم.

وبدأ الاجتماع بحوارات حول رأس المال المطلوب للقناة، وتحمس رجال الأعمال فأعلنوا إمكانية تغطية المبلغ المطلوب فوراً، وهو فى تقديرهم يومها عشرون مليونا من الجنيهات. واستمر الحوار حول سرعة التمويل والحديث عن الرغبة فى تقديم قناة متميزة. دون أن يتطرق الحديث إلى مفهوم هذا التميز أو إلى الهدف من إنشاء القناة، وهى الموضوعات التى أتصور أنها أولى بالحوار والتوضيح.

وطلبت الكلمة لأقول : إن البداية الطبيعية فى مثل هذه الظروف هى تحديد «الهدف» من إنشاء هذه القناة، وعلى ضوء تحديد هذا الهدف يتم التحاور حول الأساليب الأكثر ملائمة لتحقيق هذا الهدف.

وجاء الرد من رجال الأعمال قائلين إنهم يريدون قناة ممتازة وجذابة، تقدم «صورة إيجابية لرجال الأعمال الذين تعرضوا للتشويه فى الأعمال الدرامية»[1]، وفى برامج كثيرة تعرضت لبعض الموضوعات التى اتهم فيها رجال أعمال بممارسة عمليات فساد كبرى حصلوا فيها على الملايين من المال العام بغير وجه حق، وهرب بعضهم بهذه الأموال إلى الخارج. وفى رأى هؤلاء أن هذا التناول الإعلامى ألحق ضررًا بليغا بصورة رجال الأعمال وأنهم يرغبون فى تصحيح هذه الصورة عبر وسيلة إعلام يملكونها. ولم يحدث أن كانت لى بعد هذا الاجتماع أية صلة بالموضوع.

ولدت قناة «المحور» فى أحضان الإعلام الرسمى، فقد ساهم اتحاد الإذاعة والتلفزيون بنسبة صغيرة فى رأس مال القناة. ولم يكن هدف مالكى القناة تغطية عجز مالى، بل كان هدفهم الحصول على دعم عملى من الإعلام المصرى بتقديم مواد من مكتبة التلفزيون المصرى بأسعار مخفضة أو على سبيل الإهداء. كما حرصت القناة فى فترات البث الأولى على أن تنقل على الهواء نشرات الأخبار التى يبثها التلفزيون المصرى. ويبدو أن د. حسن راتب أراد أن يطئمن النظام منذ اللحظة الأولى لإطلاق قناته إلى أنها ستكون إضافة للإعلام الرسمى تحت شعار أنها قناة مستقلة. وكانت النتيجة الطبيعية أن القناة لم تجذب الجماهير التى رأت فيها نسخة مهزوزة من قنوات التلفزيون المصرى الرسمى.

ومع تكاثر الفضائيات الخاصة، واتجاه عدد منها إلى تقديم البرامج الجماهيرية التى تتعرض لسياسات وممارسات الحكومة بالنقد، سارعت قناة «المحور» لتلحق بهذه الموجة، وحتى تنافس فى هذا المجال الأكثر جذبًا للجماهير. كما أضافت القناة عددًا من البرامج السياسية التى تطرح موضوعات تشغل الرأى العام.

(١) يكشف هذا الحوار بوضوح الغرض من إطلاق هذه القنوات. أما الهدف الثانى وهو استخدامها كقوة ردع إعلامية فلم يتم الحديث عنه صراحة فى هذا الاجتماع.

ويلفت الانتباه أن مالكى القناة اختاروا لتقديم برامجهم السياسية عددا من الصحفيين الموالين للحكومة، فى إشارة لا تخفى على المهتمين بالشأن الإعلامى إلى أن القناة عندما تقدم بعض النقد ببرامجها الجماهيرية، فإنها تفعل ذلك وهى متدثرة بعباءة النظام، ويؤكد هذا الحرص أن قناة المحور تقوم وحدها دون باقى القنوات، حتى القنوات الحكومية، ببث مباشر لمؤتمرات الحزب الوطنى الحاكم.

أما البرنامج الجماهيرى الذى حقق نجاحًا ملحوظًا فهو برنامج «٩٠ دقيقة» الذى يقدمه الإذاعى معتز الدمرداش، وشاركته فى البداية الإذاعية مى الشربينى. وكان الإختيار الموفق لمقدمى برامج محترفين أثره فى تحقيق البرنامج نجاحات ملحوظة[١].

تشجيع الخرافة :

أولت القناة البرامج الدينية اهتمامًا كبيرًا بمنطق الإقبال الجماهيرى على مثل هذه البرامج، وهذه حقيقة. لكن الخطاب فى هذه البرامج الدينية تراوح بين «الدروشة» والترويج للخرافة والدجل باسم الإسلام.

فعدد من البرامج حرص على أن يستغل العواطف الدينية لدى الجماهير فامعن فى تقديم الموضوعات التى تقدم الفتاوى حول أمور هامشية. تتعلق بطقوس العبادات واختزال الإسلام فى هذه الموضوعات الهامشية. أما الكارثة الحقيقية فهى تشجيع الدجل والخرافة بتقديم برامج مثل برنامج «تفسير الأحلام»، وفى هذا البرنامج يقوم مفسر الأحلام الذى تستضيفه القناة وتضفى عليه من الصفات ما يجعل المشاهد يتصور أنه يشاهد عالمًا جليلاً. ويقوم هذا الشخص بتفسير أحلام المشاهدين الذين يتصلون هاتفيًا به على الهواء تفسيرًا يثبّت كل المفاهيم المتخلّفة والخرافات الشائعة بين العوام. وينسب التفسير إلى الرسول ﷺ والقرآن الكريم باستشهاده بآيات قرآنية وأحاديث نبوية يدعى أنها تؤيد هذا التفسير.

(١) سيتم الحديث المفصل عن هذا البرنامج فى الفصل الخاص بعلاقة أنظمة الحكم بالفضائيات .

قنوات دريم[1]:

بدأت قنوات «دريم» بداية واعدة. فقد بدأت بتقديم عدد من البرامج الحوارية المتميزة، من أبرزها «صالون دريم»، واقتحم البرنامج الكثير من الموضوعات المسكوت عنها والتى يحيطها نظام الحكم بسياج من «التحريم»، خاصة الموضوعات السياسية الساخنة المتعلقة بحقوق الإنسان والديمقراطية وشرعية الحاكم. وكان أحد أهم عناصر الجذب فى هذا البرانامج - إلى جانب الموضوعات المهمة - الاختيار الذكى والموفق لمن يقدمون هذا البرنامج[2]، فاختارت القناة عددا من المثقفين المتمتعين بقدر كبير من إحترام الجماهير وثقتهم، والذين لا يظهرون على شاشات التلفزيون المصرى الرسمى، لأنهم من الشخصيات التى تحترم استقلال رأيها والتى عرف عنها إنها صاحبة مواقف نقدية صريحة لكثير من الممارسات السياسية والاقتصادية لنظام الحكم.

ولم يكن هذا هو البرنامج الوحيد الذى كسب ثقه الجماهير، بل قدمت «دريم» عدداً من البرامج المتميزة والجذابة، والتى تقتحم الكثير من المناطق المحرمة التى تجذب جماهير عريضة من المشاهدين مثل برنامج «فى الممنوع» الذى كان يقدمه الراحل الأستاذ مجدى مهنا. وبرنامج «الحقيقة» الذى يقدمه الأستاذ «وائل الإبراشى» وبرنامج «العاشرة مساء» الذى تقدمه منى الشاذلى.

الصدام مع الحكومة:

عندما اعتذر الأستاذ حمدى قنديل عن تقديم برنامجة «رئيس التحرير» على شاشات التلفزيون المصرى نتيجة للتضييق الشديد والرقابة الصارمة، عندئذ سارعت قنوات «دريم» لتعرض عليه تقديم البرنامج على شاشاتها، وتلقى الأستاذ حمدى قنديل وعداً من المسئولين فى القناة بالسماح له بالحرية التى يطلبها لتقديم البرنامج بمستوى محترم.

---

(١) تقدم مؤسسة «دريم» قناتين «دريم ١» و «دريم ٢».

(٢) تناوب على تقديم حلقات البرنامج الدكتور يحيى الجمل، والأستاذ فهمى هويدى، والمرحوم صلاح الدين حافظ، والدكتور ميلاد حنا، والرائى جمال الغيطانى، وغيرهم. ولم يستمر البرنامج لفترة طويلة، فقد اختفى بعد بضعة شهور.

وبدأ الأستاذ حمدى قنديل بالفعل بتقديم برنامجه على قنوات «دريم». وحقق البرنامج نسبة مشاهدة جماهيرية عالية للغاية.

ولكن لم يلبث البرنامج أن توقف، فقد تراجعت الوعود التى بُذلت للإستاذ حمدى قنديل بسقف حرية معقول. ويبدو أن ضغوطًا حكومية لوّحت للدكتور أحمد بهجت مالك قنوات «دريم» بفتح ملفات تملكها الحكومة ويمكن أن تؤثر سلبا على استثمارات الرجل الكبيرة، فآثر السلامة، ولم يقبل الأستاذ حمدى قنديل شبح القيود الجديدة فتوقف عن تقديم البرنامج على قنوات «دريم». وخسرت القنوات عددًا هائلًا من المشاهدين مع خسارتها لبرنامج متميز.

أزمة الأستاذ هيكل:

ويبدو أن مالكى قنوات «دريم» لم يستسلموا للدروس السابقة، وظلوا يحلمون بتقديم البرامج والموضوعات التى تجذب أكبر نسبة من الجماهير، وقد عثروا على ضالتهم فى اتفاق مع الأستاذ محمد حسنين هيكل ليكون متحدثًا على قناة «دريم» فى لقاء منتظم. وقام الأستاذ هيكل بالفعل بتسجيل بعض الحلقات، وأعلنت القناة عن هذا الحدث المهم فى حملة إعلانية ضخمة سبقت تقديم أولى حلقات الأستاذ هيكل.

وأطل الأستاذ هيكل على مشاهدى قناة «دريم» فى حديث امتد لساعة كاملة. ورصد المراقبون الإقبال الهائل فى جميع البلاد العربية على مشاهدة حلقات الأستاذ هيكل. وكان سبقًا إعلاميًا تربعت به «دريم» لفترة على القمة بين قنوات كثيرة. وأغرى هذا النجاح المسئولين بقنوات دريم، فاستزادوا من أحاديث الأستاذ هيكل، وتابعوه وهو يلقى محاضرة بالجامعة الأمريكية، فسجلوا المحاضرة وتم بثها كاملة. وأثارت المحاضرة موجة عارمة من الاهتمام الجماهيرى وطالب الملايين بإعادة بث المحاضرة ليتمكن من مشاهدتها من لم يشاهدها فى البث الأول[1].

(١) تعرضت المحاضرة بصراحة ووضوح لموضوع توريث الحكم المثار بقوة فى تلك الفترة. وحذّر هيكل من خطورة هذا الاتجاه.

وأعلنت القناة أنها ستعيد بث المحاضرة، وكررت إعلان موعد الإعادة أكثر من مرة. وعندما حان موعد بث الإعادة اعتذرت القناة عن عدم بث الإعادة مبررة هذا الاعتذار بأسباب فنية؟! وفهم الجميع أن القناة تلقت تحذيرًا حكوميًا لم تستطيع أن تتجاهله.

ولم يستسلم مسئولو قناة «دريم»، فقد أغراهم النجاح فى جذب ملايين المشاهدين بأحاديث الأستاذ هيكل، أغراهم هذا النجاح بتكرار المحاولة. ونجحوا فعلاً فى إقناع الأستاذ هيكل بتسجيل حديث جديد. وحرصوا على أن يتم التسجيل بأستديو خاص تم إنشاؤه فى «دريم لاند»[1]، بعيدًا عن أستديوهات مدينة الإنتاج الإعلامى التى كانوا يستخدمونها. وتم التسجيل بالفعل وكان المسئولون فى «دريم» يتصورون أنهم سيفاجئون الحكومة ببث الحديث. وهم يعلمون ـ من تجاربهم السابقة ـ أن الحكومة ستغضب، لكنهم تصوروا أنهم قادرون على امتصاص هذا الغضب الحكومى بالاعتذار وعدم إعادة بث الحديث.

ولكن الأجهزة الأمنية ـ على ما يبدو ـ استطاعت بوسائلها الخاصة أن تحصل على نسخة من الحديث خلال التسجيل، وتم الاتصال بالدكتور أحمد بهجت وطُلب منه عدم بث الحديث أو على الأقل إجراء مونتاج لحذف عبارات حدّدها المسئول الذى اتصل به. وحاول الدكتور بهجت أن يقنع الأستاذ هيكل بأن العبارات المقترح حذفها لا تُخِلّ بمضمون الحديث، لكن الأستاذ هيكل رفض بحسم حذف أى حرف، وطلب من الدكتور بهجت اعتبار التسجيل كأن لم يكن مؤكدًا أنه لا يريد أن يسبب حرجًا للدكتور بهجت، أو أن يتسبب فى مواجهه بين الحكومة والدكتور بهجت.

وتسربت أنباء عن تهديدات حكومية بفتح ملفات الضرائب وقروض البنوك وتخصيص أراضى أكتوبر للدكتور بهجت. وتستطيع الحكومة أن تجد عشرات

(١) تصور مسئولو القناة أن الأجهزة الحكومية المعنية تحصل على نسخة من التسجيلات التى تتم بأستديوهات مدينة الإنتاج الإعلامى التى تستخدمها القناة. وتصوروا أن إنشاء أستديو خاص للقناة بمنطقة «دريم لاند» المملوكة للدكتور بهجت سيضمن الحفاظ على سرية التسجيل حتى يتم بثه.

الثغرات القانونية التى تدمر بها استثمارات الدكتور بهجت إذا أصر على المواجهة واستمر فى بث أحاديث الأستاذ هيكل. ويبدو أن التهديد كان جادًا وأن الدكتور أحمد بهجت أدرك بخبرته ـ كرجل أعمال ـ قدرة الحكومة على تنفيذ تهديداتها. واستسلم الدكتور بهجت ولم يُبَث حديث الأستاذ هيكل، وامتنع الأستاذ هيكل بعد هذه الواقعة عن الظهور على شاشات «دريم»[1].

برامج مشاغبة:

لم يستسلم المسئولون بقناة «دريم» وقدمت القناة عددا من البرامج التى كسرت الكثير من «الخطوط الحمراء»، وتعاملت مع موضوعات تثير غضب الحكومة. وأهم هذه البرامج فى رأيى برنامج «العاشرة مساء» الذى تقدمه منى الشاذلى، وبرنامج «فى الممنوع» الذى كان يقدمة المرحوم مجدى مهنا وبرنامج «الحقيقة» الذى يقدمه الأستاذ وائل الإبراشى، وبرنامج «على المقهى» الذى كان يقدمه الأستاذ إبراهيم عيسى.

وجذبت هذه البرامج عددًا هائلاً من المشاهدين. ليس فقط لأهمية وسخونة الموضوعات التى تتعرض لها هذه البرامج، وإنما أيضًا للاسلوب المحترم الذى يلتزم به مقدمو هذه البرامج.

وواصلت الحكومة وقناة «دريم» لعبة «القط والفأر» فالقناة تتحايل لتستمر برامجها فى اقتحام مناطق «محظورة» بأساليب كثيرة، منها استضافة من يمثل وجهة النظر الحكومية ويدافع عنها، لكن الحكومة كانت فى حالات كثيرة تغضب وتحاول منع القناة من التطرق أصلا لهذه الموضوعات أو على الأقل تعترض على استضافة «شخصيات» معينة معروفة بموقفها المعارض بعنف لسياسات وممارسات الحكومة.

ومن يتابع قناة «دريم» يستطيع أن يلاحظ نتائج هذه المباراة بين القناة وبين الحكومة، فقد أوقفت القناة برنامج «على المقهى» الذى كان يقدمه الأستاذ

(١) بعد توقف هيكل تمت تسوية ديون الدكتور بهجت مع البنوك بطريقة مرضية للدكتور بهجت. وتساءل من قرأ خبر التسوية إن كانت هناك علاقة بين منع هيكل من الظهور على شاشات دريم وبين هذه التسوية.

إبراهيم عيسى، ويستخدم فيه عبارات ساخرة تمثل هجومًا قاسيًا على ممارسات الحكومة وسياستها. وفى الوقت نفسه نجحت قناة دريم فى إستبقاء الأستاذ إبراهيم عيسى كأحد مقدمى برامجها، لكنها أسندت إليه تقديم برامج فنية أو دينية تطمئن الحكومة إلى أنها لن تتعرض لنقدها بطريقة «مباشرة».

أما برنامج «العاشرة مساء» فتبذل مقدمته القديرة منى الشاذلى جهدًا خارقا للإفلات من الحصارالحكومى، وكذلك يفعل الأستاذ وائل الإبراشى وتنجح محاولاتهما مرات وتفشل مرات أخرى، لكنهما يستمران فى المحاولة كلما سمحت الفرصة[1].

وهكذا تبقى قناة دريم والحكومة فى صراع مكتوم، تحاول القناة الإفلات من الحصار الحكومى، وتحاول الحكومة سد الثغرات التى تنجح القناة فى الإفلات منها. وأعتقد أن هذا الصراع سيستمر، لأن الدكتور أحمد بهجت مالك القناة يشجع محاولات المسئولين بالقناة على الاستمرار فى محاولاتهم تقديم ما يجذب الجماهير، رغم اعترافه بما تسببه له هذه البرامج من مشكلات[2].

قناة OTV :

ولدت هذه القناة فى ظروف يشتبك فيها صاحبها المهندس نجيب ساويرس فى صراعات مع عدد من الصحفيين ومع تيارات سياسية وقطاعات من الجماهير المشحونة بتوجسات يثيرها البعض حول الأهداف الحقيقية من إطلاق هذه القناة. وأشعل هذا الإشتباك تصريحات له حول «الحجاب» وحول استخدام القناة «اللهجة العامية» المصرية معتبرًا أن مخاطبة الجماهير بهذه اللهجة هو الاتجاه الصحيح للوصول إلى عقول الجماهير وقلوبهم. وساهمت بعض المواد التى تبثها القناة، واعتبرها البعض مواد مثيرة للغرائز، ساهمت هذه المواد الدرامية والغنائية فى تقديم عناصر لتسخين الاشتباك بين القناة ومنتقديها.

(١) سيتم تناول هذه النوعية بالتفصيل فى الفصل الخاص بعلاقة أنظمة الحكم بالفضائيات.

(٢) فى تصريحات صحفية للدكتور بهجت أكد أنه يتعرض لضغوط مستمرة من مسئولين فى الدولة بسبب قناة دريم. «نشرت التصريحات مفصلة بجريدة المصرى اليوم عدد السبت ٢٠٠٩/٩/٥ نقلًا عن حوار مع الدكتور بهجت ببرنامج البيت بيتك».

وبعيداً عن هذه الاشتباكات فإن التقييم الموضوعى للقناة يضعها فنيًا فى منطقة بعيدة عن منطقة الامتياز أو حتى الإجادة. فأداء العاملين بها أداء متواضع وفى كثير من الأحيان أداء هزيل، وتحاول القناة جذب فئة معينة من المشاهدين وهى فئة «الشباب» فى مرحلة المراهقة، بتقديم موضوعات تثير إهتمام هذه الفئة وبأسلوب وعبارات شائعة بين هذه الفئة. وكثير من هذه العبارات أو الأساليب محل انتقاد من كثير من المثقفين وعلماء الاجتماع والشخصيات الحريصة على الارتقاء بلغة الخطاب وبالذوق العام.

وتقديم هذه المواد بمنطق محاكاة «الواقع» الذى يعيشه هؤلاء المراهقون يكرّس أساليب خطاب تتعارض مع المعايير المهنية للإعلام، والتى تقيّم الأداء المهنى بمدى ما يساهم به فى الارتقاء بأذواق الجماهير وسلوكياتهم، باعتبار أن الإعلام «رسالة» معنية بالارتقاء بسلوكيات المجتمع. والأخذ بيد هؤلاء الشباب إلى الطريق السوى الذى يرتقى بأساليب الخطاب المتدنية، ويهذب حاسة التذوق لديهم.

أما الدعوة لهجر الفصحى وإعتبار اللهجة العامية أسلوبًا للخطاب بهذه القناة فهى دعوة مشبوهة. وأظن أن المهندس ساويرس لم ينتبة إلى أن مثل هذه الدعوة تبناها منذ عقود غلاة المتعصبين فى لبنان، حيث ظهرت شخصيات تدعو لهجر الفصحى واستخدام اللهجة العامية اللبنانية فى الإبداعات الأدبية والكتابات الثقافية، وتعميق هذا الاتجاة حتى تنفصل «اللهجة العامية» تمامًا عن الفصحى العربية بهدف فصل لبنان عن عروبته ومحيطه العربى، وهى دعوة لم تستطع الصمود فى مواجهة المشاعر القومية العربية الراسخة لدى اللبنانيين.

ولأننى أُحسن الظن بالمهندس نجيب ساويرس فإننى أتصور أن هذه التجربة غابت عنه، وإنه لو راجع نفسه لأدرك أن الشعب المصرى ـ وهو أحد أبنائه ـ تترسخ فى نفسة المشاعر القومية العربية بدرجة لا تقل عن شقيقه الشعب اللبنانى، وبالتالى فإن أى محاولة لتجاهل الفصحى فى الخطاب العام

وفى الإبداع الثقافى محكوم عليها بالفشل، كما فشلت من قبل دعوات مماثلة تبنتها شخصيات لبنانية متعصبة.

ولا يعنى هذا رفضًا لإستخدام العامية فى المواطن التى يكون فيها هذا الاستخدام ملبيًا لضرورات فنية أو مهنية، لكن الاعتراض أن يكون إستخدام اللهجة العامية هو «الهدف» وأن يكون ذلك مقترنا بإهمال «الفصحى» باعتبارها لغة خطاب «غريبة» أو لغة غير قادرة على الحياة فى هذا العصر.

قناة On TV :

وهى القناة الثانية التى يطلقها رجل الأعمال المهندس نجيب ساويرس، وهى لا تختلف عن قناته الأولى «O TV»، ولعل وجه الخلاف فى حرص هذه القناة على تقديم بعض البرامج الجادة التى تقدم بطريقة محترمة، وأهمها برنامج «مع المعارضة» الذى يقدمه الدكتور عبد المنعم سعيد.

غير أن قناتى ساويرس تثيران الكثير من الشبهات بتقديم برامج تصب فى مجرى التعصب، حتى وإن كانت تبرر هذا التوجه بأنه رد على تعصب بعض المسلمين[1].

ولا يعترض أى مواطن على أن تكون هذه القنوات صوتًا للمواطنين المسيحيين يعوّضهم عن نقص المساحات المتاحة لهم كمواطنين مصريين فى الإعلام الرسمى أو حتى الإعلام الخاص، ويوازن العدد الكبير من القنوات الدينية الإسلامية. وكل العقلاء من المواطنين لا يمكن أن يروا فى هذا أمرًا غير مقبول، بل إن كل العقلاء فى تصورى يرحبون ترحيبًا شديدًا بإتاحة الفرصة للمواطنين المصريين المسيحيين، بأن يكون لهم صوت مسموع ومساحة مناسبة للتعبير عن الرأى، شريطة أن يلتزم الجميع، مسلمون ومسيحيون بأن يكون الخطاب بعيدًا عن التعصب وإثارة النعرات الطائفية.

(١) ويقود الدكتور وسيم السيسى اتجاهًا فكريًا يجنح إلى تبنى بعض الأفكار المعنة فى التعصب ضد كل ما هو عربى وإسلامى، بمنطق أن مصر فرعونية الأصل وأن إحياء هذه الأصول الفرعونية ضرورة لفرز «الغرباء العرب» الذين وفدوا إلى مصر. هذه الاتجاهات المتعصبة تتسرب فى الكثير من برامج قنوات ساويرس.

ويبقى بعد ذلك أن نرى قنوات «OTV» و «On TV» مجرد قنوات عادية ليست لهما ملامح خاصة بالمعايير المهنية، سوى أنهما قناتان معنيتان بالشأن المسيحى فى مصر. وتركزان على المواد الترفيهية التى تخاطب فئه الشباب عامة والمراهقات والمراهقين خاصة.

قنوات الحياة[1] :

هذه القنوات هى المولود الحديث نسبيًا بين القنوات المصرية التى ذكرتها، ومن سوء حظها أن صاحبها الدكتور السيد البدوى رجل الأعمال والقيادى بحزب الوفد تقدم بطلب الترخيص لإطلاقها فى توقيت كان فيه وزراء الإعلام العرب قد ضاقوا تمامًا بما تقدمه بعض الفضائيات، مما اعتبروه كسرًا لكل الخطوط الحمراء التى تحمى أنظمة الحكم.

وفى ظل هذا المناخ جرت المفاوضة بين الدكتور البدوى والسلطات المصرية للحصول على رخصة بث القناة من القاهرة. وفشلت المفاوضات أمام القيود الثقيلة التى حاولت السلطات فى مصر فرضها على القناة. ولم يجد الدكتور البدوى بدًا من التوجه إلى إطلاق القناة من منطقة حرة بالأردن.

بدا واضحًا من بدايات القنوات أنها ستركز على بث المواد الترفيهية وبشكل خاص المسلسلات والأفلام والرياضة. وحاولت أن تنافس فى مجال البرامج التى تهتم بالأحداث اليومية الجارية على نمط برامج: العاشرة مساء «قناة دريم»، و٩٠ دقيقة «المحور»، والقاهرة اليوم «أوربت»، والبيت بيتك «التلفزيون المصرى».

قدمت قناة «الحياة» برنامجًا تحت مسمى «الحياة اليوم» واسندت تقديمه إلى الثنائى لبنى عسل وشريف منير. واستطاع البرنامج أن ينافس البرامج المشابهة بدرجة معقولة وإن كانت نسبة المشاهدة لا تؤهله ليحجز لنفسه مكانًا ثابتًا بين البرامج التى سبقته. وتملك مقدمة البرنامج لبنى عسل ومقدمه

(١) عدد قنوات الحياة حتى الآن ثلاث قنوات تركز إحداها على الرياضة والثانية على المسلسلات، وإن كانت القنوات الثلاث تقدم إلى جانب هذه البرامج الرياضية والدرامية العديد من البرامج المنوعة، مما يجعلها تنتمى إلى «القنوات العامة».

شريف منير، يملكان قدرات مهنية جيدة، ويديران الحوار مع الضيوف بكفاءة مهنية تشى بخلفية مهنية وثقافية واضحة.

ورغم الجهد المبذول من مقدمى هذه البرامج لجذب المشاهدين إلا أن نجاحها كان محدودًا لأن، مشاهد هذه النوعية من البرامج تعوّد على متابعة البرامج التى أشرت إليها، ويصعب على هؤلاء المشاهدين متابعة عدة برامج تبث كلها فى مواعيد مسائية متقاربة وأيضًا تتعرض تقريبًا لنفس الموضوعات. ورغم ذلك فقد استطاعت قنوات الحياة أن تنافس بقوة فى المجالات الترفيهية التى ركزت عليها، وأولت البرامج الرياضية عناية خاصة لجذب الكتلة الكبيرة من المشاهدين المهتمين بكرة القدم. وأضافت برامج مسابقات شهيرة لمزيد من جذب المشاهدين.

ملامح مشتركة للقنوات الخاصة

بالإضافة للملامح الخاصة لكل قناة من القنوات التى أشرت إليها عند الحديث بشىء من التفصيل عن كل قناة . فهناك بعض الملامح المشتركة بين جميع هذه القنوات :

١- تقدم هذه القنوات عددًا كبيرًا من البرامج التى تجذب كثافة مشاهده عالية، ومنها :

(أ) **البرامج الجماهيرية «برامج الـ Tock Show»**[١] : بعض هذه القنوات استطاع أن يجذب ملايين المشاهدين خاصة المصريين بتقديم «البرامج الجماهيرية» التى تعرضت للأحداث اليومية فى حياة المواطنين وصلتهم بالحكومة ومختلف المؤسسات. وركزت هذه البرامج على معاناة جماهير البسطاء الذين لم تكن تتاح لهم أية فرصة للشكوى خاصة فى مواجهة بطش أمنى عنيف. كما تابعت هذه البرامج قضايا الفساد الكبرى وكشفت عن تورط مسئولين فى مواقع حساسة بالحكم بمافيا الفساد.

(١) سيتم تناول هذه النوعية من البرامج وآثارها بالتفصيل فى الفصل الخاص بعلاقة أنظمة الحكم بالفضائيات.

هذه البرامج كانت بمثابة «كلمة السر» التى جذبت ملايين المشاهدين لهذه القنوات، والتى دفعت هذه القنوات للتنافس على تقديم العديد من هذه البرامج تحت مسميات مختلفة.

(ب) **البرامج الدينية:** وتغيب عن هذه البرامج رؤية واضحة تحدد نوعية خطابها. فبعضها يقدم خطابًا معتدلاً ويحاول أن يتسق مع روح العصر. وبعضها مُغْرق فى التعصب، وكثير منها يروّج للدجل والخرافات كبرامج قراءة الأبراج وتفسير الأحلام وغيرها. ومعنى هذا أن هذه البرامج لا تهدف لبث رسالة محددة لكنها خليط من اتجاهات متناقضة ومتضاربة.

(جـ) **البرامج الرياضية** : وبالذات بث مباريات كرة القدم خاصة فى المسابقات المحلية أو الإقليمية أو الدولية.

(د) **برامج ترفيهية** : فى مختلف فنون الغناء والموسيقى والسينما والمسلسلات وغيرها.

(هـ) **برامج مسابقات:** تقدم هذه القنوات عشرات المسابقات التافهة والتى لا تحفز على التفكير أو على تحصيل معلومات. وتقدم جوائز مالية أو عينية مغرية. والكثير من هذه المسابقات تتم باتصالات هاتفية. وتستنزف هذه الاتصالات الهاتفية مبالغ مالية كبيرة من ميزانيات الجماهير محدودة الدخل التى تتابع هذه المسابقات، وتغريها الجوائز للمشاركة على أمل فوز لا يتحقق إلا نادرًا.

ومثل هذه المسابقات تنشر «ثقافة الكسب بالحظ» على حساب الثقافة التى يجب أن تتبناها وسائل الإعلام وهى «ثقافة الكسب بالعمل».

٢- يتدنى الأداء المهنى إلى درجة كبيرة فى عدد غير قليل من هذه القنوات. وبعض هذا التدنى يعود إلى حالة عامة تسود فى هذه القنوات، وهى إسناد تقديم وإعداد الكثير من البرامج إلى شخصيات لا تملك الحد المعقول من الثقافة والموهبة التى تؤهلهم للتصدى لتقديم البرامج، أو إسناد تقديم

البرامج لصحفيين أو ممثلين تصور أن الشهرة التى ينالها هؤلاء فى مجالات عملهم ستجذب الجماهير لمشاهدتهم[1].

وفى هذا المجال فإن من يتابع «التقارير» التى تُقَدّم فى العديد من البرامج، سوف يكتشف حجم الأخطاء البشعة التى تجعل الأذن تنفر تمامًا من متابعة مثل هذه التقارير. وكثيرًا ما يضاف الأداء الردىء إلى كثرة الأخطاء اللغوية فى النحو وفى تركيب الجُمَل ليصل مستوى هذه التقارير إلى الحد الذى يدفع المشاهد إلى عدم متابعة البرنامج.

٣ - تبلغ المأساة ذروتها عندما تفرض بعض هذه القنوات مقدمى برامج تنحط أساليب خطابهم إلى الدرك الأسفل باستخدام العبارات السوقية والإشارات التى تحمل إيحاءات منحطة وأسلوب خطاب يتعمّد استظرافا مبتذلا. ومع الإلحاح بهذه النماذج وتركيز الدعاية لهم فى صفحات الفن الصفراء تتوج هذه القنوات مثل هذه النوعية «نجومًا» على شاشاتها.

ويتجاوز التأثير السلبى لمثل هؤلاء الانحطاط بمستوى الأداء إلى ما هو أخطر وهو التأثير سلبًا على أجيال قادمة من الإذاعيين الجدد. فهؤلاء قد يتأثرون بالدعاية الواسعة التى تسوّق هؤلاء على أنهم «نجوم الإعلام»، وتصبح هذه النماذج هى المثل الذى تحاول الأجيال الجديدة من الإذاعيين أن تقلدة. ومعنى هذا أن يمتد تأثير هذا الانحطاط فى الأداء إلى الأجيال الجديدة من الإذاعيين.

ويبدو أن إطلاق المئات من هذه الفضائيات فى فترة زمنية لا تتجاوز بضع سنوات، يبدو أنه كان سببًا مباشرًا فى عدم توفر الكوادر الإذاعية المؤهَّلة والمدرَّبة جيدًا للعمل فى مثل هذه البرامج. ويضاف إلى هذا أن كثيرين من أصحاب هذه القنوات ليست لهم خبرة أو دراية كافية بمتطلبات العمل الإعلامى عامة والعمل التلفزيونى خاصة. والنتيجة الطبيعية فى مثل هذه الحالة تدفق أعداد هائلة من الأدعياء لسد هذا النقص.

(١) نجح بعض هؤلاء الصحفيين والنجوم، ولكن الكثيرين لم يوفقوا، لأن لكل مجال مهاراته التى تمكنه ولا تكون مناسبة فى مجال آخر يتطلب مواصفات خاصة.